الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين. أما بعد..

قال الناظم أبو إسحاق الإلبيري رحمه الله تعالىٰ في منظومته في الحث علىٰ طلب العلم، والتحلي بالأخلاق الفاضلة:

وَلاَ تَخْتَــلْ بِمَالِــكَ وَالْــهُ عَنْــهُ ... فَلَــيْسَ الْمَــالُ إِلاَّ مَــا عَلِمْتَــا

وَلَــيْسَ لِجَاهِــلٍ فِــي النَّــاسِ مُغْــنٍ ... وَلَــو مُلْــكُ الْعِــرَاقِ لَــهُ تَــأَتَّىٰ

سَــيَنْطِقُ عَنْــكَ عِلْمُــكَ فِــي مَــلاءٍ ... وَيُكْتَــبُ عَنْــكَ يَوْمــًا إِنْ كَتَمْتَــا

وَمَــا يُغْنِيــكَ تَشْــيِيدُ الْمَبَــانِي ... إِذَا بِالْجَهْــلِ نَفْسَــكَ قَــدْ هَــدَمْتَا

جَعَلْــتَ المَــالَ فَــوْقَ الْعِلْــمِ جَهْــلاً ... لَعَمْــرُكَ فِــي الْقَضِــيَّةِ مَــا عَــدَلْتَا

وَبَيْنَهُمَــا بِــنَصِّ الْــوَحْيِ بَــوْنٌ ... سَــتَعْلَمُهُ إِذَا "طَــه" قَرَأْتَــا

لَــئِنْ رَفَــعَ الْغَنِــيُّ لِــوَاءَ مَــالٍ ... لأَنْــتَ لِــوَاءَ عِلْمِــكَ قَــدْ رَفَعْتَــا

لَــئِنْ جَلَــسَ الْغَنِــيُّ عَلَــىٰ الْحَشَــايَا ... لأَنْــتَ عَلَــىٰ الكَوَاكِــبِ قَــدْ جَلَسْــتَا

وَإِنْ رَكِــبَ الْجِيَــادَ مُسَــوَّمَاتٍ ... لأَنْــتَ مَنَــاهِجَ التَّقْــوَىٰ رَكِبْتَــا

وَمَهْمَــا افْــتَضَّ أَبْكَــارَ الْغَــوَانِي ... فَكَــمْ بِكْــرٍ مِــنَ الحِكَــمِ افْتَضَضْــتَا؟

وَلَــيْسَ يَضُــرُّكَ الإِقْتَــارُ شَــيْئًا ... إِذَا مَــا أَنْــتَ رَبَّــكَ قَــدْ عَرَفْتَــا

فَمَــاذَا عِنْــدَهُ لَــكَ مِــنْ جَمِيــلٍ ... إِذَا بِفِنَــاءِ طَاعَتِــهِ أَنَخْتَــا

فَقَابِــلْ بِــالْقَبُولِ لِنُصْــحِ قَــوْلِي ... فَــإِنْ أَعْرَضْــتَ عَنْــهُ فَقَــدْ خَسِــرْتَا

وَإِنْ رَاعَيْتَــهُ قَــوْلاً وَفِعْــلاً ... وَتَــاجَرْتَ الإِلَــهَ بِــهِ رَبِحْتَــا

لا نزال- أيها الإخوة الكرام!- مع هذه الوصايا العظيمة من هذا الإمام العلم أبي إسحاق الإلبيري رحمه الله تعالىٰ.

وقد عرفنا أن هذه الوصايا قدمها لأحد الأشخاص يقال له: أبو بكر، وقد مرَّ ذِكْر هذه الكُنية، وسيأتي أيضاً ذِكْرها، فهو خطاب لشخص يقال له: أبو بكر، كان معاصراً للإلبيري رحمه الله تعالىٰ.

ومن العجيب أن هذا الشخص قد وقع في أبي إسحاق ثلباً ونقداً وطعناً وعدّاً للمعائب، فلم يقابل إساءته بإساءة، وإنما قابل الإساءة بالإحسان؛ فقدَّم هذه النصيحة اللطيفة الجميلة التي أصبحت ذات نفع عظيم، وفائدة كبيرة جداً علىٰ مر الأجيال ينتفع منها طلاب العلم لاسيما وقد حلَّاها بمعانٍ جميلة وشواهد مفيدة، وتقريرات نافعة ولاسيما في باب الحث علىٰ العلم وبيان مكانته العظيمة ومنزلته العلية.

يقول رحمه الله تعالىٰ في وصاياه: (وَلاَ تَخْتَلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ) وفي بعض النُّسخ (ولا تَحْفُل بمالك) تحفُل بمالك أي: لا يكن مالك هو الشغل الشاغل لك، والمستغرق لوقتك، والآخذ بجُلّ عنايتك واهتمامك، وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا»، فيقول له: (ولا تَحْفُل بمالك) أي: لا يكون المال يأخذ منك النصيب الأوفر والحظ الأكبر من حيث العناية والاهتمام.

وفي بعضها (لاَ تَخْتَلْ): من الاختيال وهو الكِبْر والغرور والعُجب بالنفس، والزُّهُوُّ.

(وَلاَ تَخْتَلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ) ومعنىٰ (الْهُ عَنْهُ) أي: بما ينفعك، أشغل نفسك عنه بما ينفعك مما يقربك إلىٰ الله ﷻ ويدنيك منه، فلا تلتهِ به، لا يشغل وقتك واهتمامك، وإنما عليك أن تلهو عنه- أي تشغل نفسك عنه- بما يقربك إلىٰ الله ﷻ ويدنيك منه.

(فَلَيْسَ الْمَالُ إِلاَّ مَا عَلِمْتَا) مالك الحقيقي علمك النافع الذي تنال به خير الدنيا والآخرة لأن العلم النافع هو الذي به تتميز الأمور، وأيضاً به تُعرَف الأموال، تُعرَف من

حيث نافعها وضارها، ومن حيث طريقة التعامل معها، ومن حيث الحذر من الافتتان بها، ومن نواحٍ كثيرة إذا وُفِّق المرء للعلم النافع.

وأيضاً بالعلم النافع يميز المرء بين العمل الصالح وغير الصالح؛ ولهذا صحّ في الحديث أن نبيّنا عليه الصلاة والسلام كان كل يوم بعد صلاة الصبح يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً»؛وقدّم عليه الصلاة والسلام العلم النافع علىٰ الرزق الطيب والعمل المُتَقَبَّل لأنه أساس لهما، لا يستطيع الإنسان أن يَمِيز بين رزق طيب وخبيث، وعمل صالح وغير صالح إلا بالعلم

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ وَلَو مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأَتَّىٰ

النافع؛ ولهذا بالعلم يُبدأ، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [محمد:١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

(فَلَيْسَ الْمَالُ إِلاَّ مَا عَلِمْتَا) أي: مالك الحقيقي المثمر ثمرات نافعات في الدنيا والآخرة هو العلم النافع.

(وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ) وفي بعض النُّسَخ (معنىٰ) (وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعنىٰ).

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ وَلَو مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأَتَّىٰ

أي: أن الشخص الجاهل الغارق بجهله لا نفع له ولا فائدة من ورائه للآخرين، إن سلموا من مضرته، وإلا لن ينتفعوا به لأنه ليس عنده علم يفيد به الآخرين وينفع به الآخرين حتىٰ وإن أوتي ما أوتي من الملك، ومَثَّل لذلك بقوله: (وَلَو مُلْكُ الْعِرَاقِ)، ومُلك العراق يُضرَب به المثل إذ ذاك في سعته، يعني حتىٰ لو ملك ملكاً واسعاً كبيراً فإنه لا يغني ولا ينفع الآخرين.

(وَلَو مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأَتَّىٰ) يعني لو صار بيده مُلك العراق، وحاز مُلكاً واسعاً كبيراً فإنه لا يغني الآخرين، أو لا ينفع الآخرين ولا يفيد الآخرين.

سَـيَنْطِقُ عَنْـكَ عِلْمُـكَ فِـي مَـلاءٍ وَيُكْتَـبُ عَنْـكَ يَوْمـًا إِنْ كَتَمْتَـا

هنا يذكر حال مَنْ عنده علم، إن كان عمل علىٰ إفادة الآخرين به ونفعهم فإن علمه ينطق عنه في الملأ.

(فِي مَلاءٍ) أي: الملأ، الملأ هم القوم، يقال لهم : ملأ لأنهم يملؤون المكان، يقال لهم (ملأ) يملؤون المكان؛

فينطق عنك علمك في ملأ؛ إن كنت صاحب علم وعُنيت ببيان الآخرين نطق علمك بما يفيد الناس وينفعهم في اجتماعاتك بهم والتقاءاتك بهم.

(وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمـًا إِنْ كَتَمْتَا) (وَيُكْتَبُ عَنْكَ) والمراد بـ (عَنْكَ) أي: عليك، وحروف الجر تتناوب.

(وَيُكْتَبُ عَنْكَ) أي: يُكتَب عليك (يَوْمـًا إِنْ كَتَمْتَا) إن كتمت علمك كُتب عليك هذا الكتمان وعوقبت عليه.

وفي الحديث: «مَنْ سُئل عن علم فكتمه أُلجم بلجامين من نار يوم القيامة» أو «بلجام من نار يوم القيامة».

فكتمان العلم يُكتَب علىٰ كاتمه، ويُعاقَب علىٰ ذلك.

ثم يقول له:

وَمَـا يُغْنِيـكَ تَشْـيِيدُ الْمَبَـانِي إِذَا بِالْجَهْـلِ نَفْسَـكَ قَـدْ هَـدَمْتَا

ما الذي ينفعك ويفيدك وتنال به سعادة الدنيا والآخرة؟

انشغالك بتشييد المباني؛ تشييد المباني: أي إقامة العمران، والأدوار المتكررة والمبنىٰ تلو الآخر.

ماذا يفيدك تشييد المباني إذا بالجهل نفسك قد هدمتا؟!؛ إذا كنت قد هدمت نفسك بالجهل فلم تعلمها ولم تفقهها ولم تعتني بتعليمها وتفقيهها ما خُلِقت لأجله وأوجدت لتحقيقه.

ولهذا يوجد في الناس مَنْ يهتم بأمور الدنيا من حيث البناء والعمران وإصلاح الدنيا اهتماماً بالغاً وكثير من ضروريات الدين وواجباته يجهلها ولا يعلمها، ويكون حاذقاً في أمور دنياه وجاهلاً جهلاً مطبقاً في أمور دينه وما يقربه لربه ومولاه ﷻ.

جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

(جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ) من الأخطاء التي ارتكبتها ووقعت فيها أنك جعلت المال فوق العلم، يعني جعلت مكانة المال فوق مكانة العلم، وفضَّلت المال علىٰ العلم جهلاً، أي: جهلاً منك بمكانة العلم ومنزلته، ولو عرفت للعلم قدْره لما قدّمت المال عليه، ولما جعلت المال مُقدَّماً عليه.

جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

لم تُنصف في القضية.

وقوله: (لَعَمْرُكَ) ليست قسماً وإنما كلمة جرىٰ بها اللسان وليست هي من باب القسم.

ولشيخنا حمّاد الأنصاري رحمه الله رسالة في (لَعَمْرُك)، وبيّن أنها ليست من القسم.

(لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا) أي: لم تعدل في هذه القضية، عندما فضَّلت المال علىٰ العلم وقدّمته علىٰ العلم لم تكن منصفاً ولا عدلاً.

وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ سَتَعْلَمُهُ إِذَا "طَه" قَرَأْتَا

(وَبَيْنَهُمَا) أي: بين العلم والمال.

(بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ) والبون: المسافة الشاسعة، بينهما بون: أي بينهما مسافة شاسعة وفرق كبير.

(سَتَعْلَمُهُ إِذَا "طَه" قَرَأْتَا) إذا قرأت سورة طه ستدرك الفرق والبون الشاسع بين العلم والمال.

قيل: أراد بذلك قول الله ﷻ في سورة طه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] ففي مقام طلب الزيادة والتوسع والتحصيل بماذا أمره الله؟

قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] ما قال: (وقل رب زدني مالاً) أو نصيباً وحظاً وافراً من هذه الدنيا، قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]؛ فدعاه إلىٰ سؤال الله الزيادة في العلم.

فمَنْ يحكم في هذه القضية أيهما أفضل العلم أو المال، ويقرأ هذه الآية من سورة طه علىٰ سبيل المثال ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، أيهما المقدم وأيهما أفضل، وأيهما أنفع، وأيهما أجدىٰ وقد قال الله لنبيّه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]؟

أيضاً إذا قرأت في سورة مريم قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم] أينا (نحن أو أنتم) خير وأفضل من حيث الحضارة، من حيث العمران، ومن حيث البناء، ومن حيث كذا؟ ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم].

فهل هذا العمران، وهذه الحضارات هي التي تقرب العبد إلىٰ الله زلفىٰ وينال بها المنازل العلية عند الله والدرجات الرفيعة، ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم:٧٣]، فلو كان التفضيل بالمال والعمران ففي غير المسلمين مَنْ فاقوا وبزوا وتفوقوا في هذا الباب تفوقاً كبيراً جداً.

فالذي يقول: إن المال أفضل من العلم ومُقدَّم عليه لم ينصف في القضية.

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ... لأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

(لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ) الآن يعقد مقارنات بين غني وعالم، رجل حصَّل مالاً كثيراً ورجل حصَّل علماً نافعاً فجاء بأبيات عديدة يقارن فيها بين هذا وهذا.

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ... لأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

إن رفع الغني لواء المال أنت قد رفعت لواء العلم، ولواء العلم خير وأفضل- كما تقدم-.

لَئِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَىٰ الْحَشَايَا ... لأَنْتَ عَلَىٰ الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا

(لَئِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَىٰ الْحَشَايَا) والحشايا: هي الفُرُش المحشوة التي تريح الجالس.

لَـئِنْ جَلَـسَ الْغَنِـيُّ عَلَـىٰ الْحَشَـايَا لأَنْـتَ عَلَـىٰ الكَوَاكِـبِ قَـدْ جَلَسْـتَا

(عَلَىٰ الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا) ومراده بـ(الكواكب) أي المعارف الواسعة والعلوم الطيبة التي تظفر بها وتهنأ بنيلها وتحصيلها.

وَإِنْ رَكِـــبَ الْجِيَـــادَ مُسَـــوَّمَاتٍ لأَنْـــتَ مَنَـــاهِجَ التَّقْـــوَىٰ رَكِبْتَـــا

(وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ)؛

(وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ) أي: الخيل.

و(مُسَوَّمَاتٍ) أي عليها العلامات والوسم.

وَإِنْ رَكِـــبَ الْجِيَـــادَ مُسَـــوَّمَاتٍ لأَنْـــتَ مَنَـــاهِجَ التَّقْـــوَىٰ رَكِبْتَـــا

إن كان هو ركب الخيل المسومة فأنت ركبت مناهج التقوىٰ، وجعلت التقوىٰ هي التي تسير بها إلىٰ عالي المقامات ورفيع الدرجات وجميل المنازل.

فهو يركب الجياد لتوصله لمطالبه الدنيوية، وأنت تمتطي التقوىٰ لتصل بها رفيع المنازل وعَلِيَّ الدرجات يوم تلقىٰ الله ﷻ.

وَمَهْمَـــا افْـــتَضَّ أَبْكَـــارَ الْغَـــوَانِي فَكَـمْ بِكْـرٍ مِـنَ الحِكَـمِ افْتَضَضْـتَا؟

إذا كان هو بما عنده من مال افتض أبكار الغواني فكم (مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا) يعني كم نِلْت وحصَّلت من الحِكم العالية التي مُليء قلبك غِبطةً وفرحـًا وسروراً بافتضاضك لها- أي: تحصيلك لها ونيلك لها ووقوفك عليها-.

وَلَـــيْسَ يَضُـــرُّكَ الإِقْتَـــارُ شَـــيْئاً إِذَا مَـــا أَنْـــتَ رَبَّـــكَ قَـــدْ عَرَفْتَـــا

(الإِقْتَارُ): هو الفقر وضيق ذات اليد؛ هذا لا يضرك شيئـًا عند الله، لا يضرك شيئـًا عند الله إذا كنت عرفت الله، وقمت بحقه عليك ﷻ الفقر هذا لا يضرك، لا يضرك عند الله.

والعلماء- رحمهم الله- عقدوا مقارنة وأطالوا في بحثها والكلام عليها في أيهما أفضل؟ الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟ أي هذين أفضل؟

ولأهل العلم في المفاضلة بين الفقير الصابر والغني الشاكر بحوث مطوّلة وكلام واسع، يقول ابن القيم رحمه الله: سألت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن ذلك..

فقال: أفضلهما أتقاهما لله.

قلت له: فإن كانوا في التقوىٰ سواء؟

قال: هم في الفضل سواء.

لماذا؟

لأن الفقير عبوديته الصبر فصبر، والغني عبوديته الشكر فشكر، أي كل منهم أقام بالعبودية التي تتناسب مع حاله ووضعه؛ هذا عبوديته الصبر فقام بها متممًا لها، وذاك عبوديته الشكر فقام بها متممًا لها فهم في الفضل سواء.

فإذاً فقر الإنسان إذا كان تلقاه بالصبر والاحتساب ورجاء ما عند الله لا يضره ذلك شيئًا إن كان قد قام بحق الله جل وعلا عليه.

فَمَـاذَا عِنْـدَهُ لَـكَ مِـنْ جَمِيـلٍ إِذَا بِفِنَـاءِ طَاعَتِـهِ أَنَخْتَـا

هذا توضيح للبيت الذي قبله أن لا يضرك شيئًا اقتارك وفقرك، (فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ) أي: كم عنده لك من جميل، كم عند الله لك من جميل.

(إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا) إذا كنت فعلاً أنخت راحلتك بفناء طاعته فلزمت طاعة الله، وعُنيت بطاعة الله، وأقبلت علىٰ طاعة الله ﷻ.

فَقَابِـلْ بِـالْقَبُولِ لِنُصْـحِ قَـوْلِي فَـإِنْ أَعْرَضْـتَ عَنْـهُ فَقَـدْ خَسِـرْتَا

(فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي) هذا الذي أنصحك به عليك أن تُعنَىٰ بتلقيه بالقبول.

(فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا) أي أُحذِّرك فإن إعراضك عن هذه الوصايا فيه خسران لك، وأوصيك أن تتلقاها بالقبول والعناية التامة.

وَإِنْ رَاعَيْتَـهُ قَـوْلاً وَفِعْـلاً وَتَـاجَرْتَ الإِلَـهَ بِـهِ رَبِحْتَـا

إن اعتنيت بهذا المعاني قولاً وفِعْلاً.

(وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ) يعني جعلتها تجارة لك، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ١٠﴾ [الصف] إن تاجرت الإله به- يعني بهذا الذي أوصيك به قولاً وفعلاً- فإنك صاحب تجارة رابحة.

قال رحمه الله:

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ... تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا

وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا ... كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا

سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ ... فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا؟

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ... سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا

وَتَعْرَىٰ إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا ... وَتُكْسَىٰ إِنْ مَلاَبِسَهَا خَلعْتَا

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ ... كَأَنَّكَ لاَ تُرَادُ لِمَا شَهِدْتَا

وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلٰكِنْ ... لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا ... وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

وَلاَ تَحْزَنْ عَلَىٰ مَا فَاتَ مِنْهَا ... إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا ... مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا

وَلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا ... فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا

وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ ... وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَىٰ أَمْ غُلِلْتَا؟

وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا ... وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا ... بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّىٰ

وَلاَزِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ ... سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا ... لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا

وَلاَ تَقُـلِ الصِّـبَا فِيـهِ امْتِهَـالٌ ... وَفَكِّـرْ كَـمْ صَـغِيرٍ قَـدْ دَفَنْتَـا
وَقُـلْ: يَـا نَاصِـحِي بَـلْ أَنْـتَ أَوْلَـىٰ ... بِنُصْـحِكَ لَـوْ لِفِعْلِـكَ قَـدْ نَظَرْتَـا
تُقَطِّعُنِـي عَلَـىٰ التَّفْـرِيطِ لَوْمـًا ... وَبِـالتَّفْرِيطِ دَهْـرَكَ قَـدْ قَطَعْتَـا
وَفِـي صِـغَرِي تُخَـوِّفُنِي الْمَنَايَـا ... وَمَـا تَـدْرِي بِحَالِـكَ حَيْـثُ شِـخْتَا
وَكُنْـتَ مَـعَ الصِّـبَا أَهْـدَىٰ سَـبِيلاً ... فَمَـا لَـكَ بَعْـدَ شَـيْبِكَ قَـدْ نَكَثْتَـا
وَهَـا أَنَـا لَـمْ أَخُـضْ بَحْـرَ الْخَطَايَـا ... كَمَـا قَـدْ خُضْـتَهُ حَتَّـىٰ غَرِقْتَـا
وَلَـمْ أَشْـرَبْ حمُيَّـا أُمِّ دَفْـرٍ ... وَأَنْـتَ شَـرِبْتَهَا حَتَّـىٰ سَـكِرْتَا
وَلَـمْ أَنْشَـأْ بِعَصْـرٍ فِيـهِ نَفْـعٌ ... وَأَنْـتَ نَشَـأْتَ فِيـهِ وَمَـا انْتَفَعْتَـا
وَلَـمْ أَحْلُـلْ بِـوَادٍ فِيـهِ ظُلْـمٌ ... وَأَنْـتَ حَلَلْـتَ فِيـهِ وَانْتَهَكْتَـا

يواصل رحمه الله تعالىٰ ذِكْر هذه الوصايا العظيمة، يقول:

(فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ) أي ما هي بشيء.

فلا تستغرق اهتمامك وعنايتك ولا تكن هي مبلغ علمك فليست بشيء.

(تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتًا) أي: هذه حال الناس في هذه الحياة الدنيا ما مُلِئت دار حبرة إلا ومُلئت عبرة، والإنسان يتقلب بين أمور تَسَرُّ وأمور تسوء وتُحزِن، لكن المؤمن في الحالتين من خير وإلىٰ خير - كما قال عليه الصلاة والسلام-: «عجبـًا للمؤمن إن أمره كله خير؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء وصبر فكان خيراً له».

لكن في الجملة الإنسان مُعرَّض للابتلاء بالسراء والضراء، والشِّدة والرخاء، والضحك والبكاء، مُعرَّض لهذا وهذا.

فالدنيا ليست بشيء؛ إن أعطتك.. أو نِلْت من زهرتها وزينتها وزخرفها يأتي عليك وقت آخر وتنال أيضـًا من غصصها ونكدها وهمومها.. إلىٰ غير ذلك (تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتًا).

وَغَايَتُهَـا إِذَا فَكَّـرْتَ فِيهَـا ... كَفَيْئِـكَ أَوْ كَحُلْمِـكَ إِذْ حَلَمْتَـا

(وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا) غاية الدنيا إذا فكرت فيها (كَفَيْئِكَ) مثل فيئك، مثلها مَثَل فيئك.

الفيء: يُطلَق علىٰ ما نسخ الشمس، وهو ما يكون بعد الزوال، ما نسخ الشمس يعني بعد الزوال يبدأ الفيء ينسخ الشمس ويمتد ويمتد ويمتد إلىٰ أن يدخل الناس في الظلام.

وهذا الفيء سريع انقضاؤه، الفيء يُطلَق علىٰ ما بعد الزوال عندما يبدأ الظل يظهر ثم يمتد، الظل يمتد ويمتد وينسخ الشمس حتىٰ تظلم، فما بعد الزوال يقال له فيء، وما يكون في الصباح يقال له ظل، فما نسخ الشمس يقال له فيء، وما نسخته الشمس يقال له ظل.

وفيء الزوال- ولاسيما في أيام الصيف- سريع جداً، وربما ترىٰ ذلك في الأصيل، في العصر فترة الغروب تجد أن الظل سريع، الفيء سريع.. ولهذا جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو واقف بعرفات قبيل غروب الشمس بقليل والفيء في سرعته، والغروب أوشك قال للناس- والحديث في المسند وهو ثابت- قال للناس عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس! إنه لم يبقَ من دنياكم فيما مضىٰ منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضىٰ منه».

فهذا معنىٰ قوله (كَفَيْئِكَ) يعني الدنيا مثل فيئك، الدنيا كظل زائل- هذا مَثَلُها- الدنيا كظل زائل، سريع ما ينقضي (كَفَيْئِكَ).

وذكر أيضاً مَثَلاً آخراً للدنيا (أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا) الحُلم: ما يراه المرء في منامه، حَلَم حُلماً، فيقال.. يقول: (كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا) أي: مثل الحُلم.

فالدنيا كظل زائل أو كحُلم، حُلم ليل، وحُلم الليل أحداثه سريعة جداً ثم تنتهي، أحداثه سريعة متلاحقة ثم ينتهي الحلم بأسرع ما يكون.

فهذان مثلان للدنيا في سرعة زوالها.

سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا؟

ثم يقول له: (سُجِنْتَ بِهَا) مشيراً إلىٰ الحديث: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»، فيقول: (سُجِنْتَ بِهَا) أي: سُجنت في هذه الحياة الدنيا (وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ)، وهذا أمر عجيب، أن

يكون الشخص محب لسجنه، (سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ)، أي: تحب هذا المكان الذي هو سجن لك، (سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ).

قوله: (سُجِنْتَ بِهَا) مأخوذ من الحديث «الدنيا سجن المؤمن».

فيقول:

سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا؟

(فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا) يعني هل يحب الإنسان المكان الذي يُسجَن فيه؟!

يبغضه أشد البغض، ويكرهه أشد الكراهية، وهذا كله مراد الناظم منه أن ينبه الغافل المستغرق في هذه الدنيا التي شغلته وأصبحت هي أكبر همّه ومبلغ علمه ينبهه علىٰ هذه المعاني حتىٰ لا يُفتَن في هذه الدنيا، ويُغَرّ بهذه الحياة.

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا

ثُم يذكر من شأن هذه الحياة الدنيا يقول: (وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ)، أنت تأكل أنواع من الأطعمة مما تنبته الأرض، أنت تأكل أنواعًا من الأطعمة كثيرة جداً، عدّد ما شئت من الطعام الذي تضعه علىٰ سفرتك وتأكل منه، أنواع من الأطعمة تنبتها الأرض؛ الخضروات والفواكه، والبقول، هذه التي تأكلها هي من الأرض من نبات الأرض، مما تنبت الأرض (وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ).

(وَعَنْ قَرِيبٍ) يعني عن وقت قريب.

(سَتَطْعَمُ مِنْكَ) معنىٰ تطعم منك أي: تأكل منك، الأرض نفسها ستأكل منك.

(سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا) أنت جسمك تغذىٰ بأنواع من الأطعمة التي خرجت لك من الأرض، ثم هذا الذي طعمته وتغذىٰ به جسمك ونما وترعرع ستأكله منك الأرض، وفي الحديث: «كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجْبُ الذَّنَب»، فالأرض تأكلك، تطعمك، أنت الآن تطعم منها لكن سيأتي وقت قريب وتطعمك الأرض، تأكلك الأرض كما جاء ذلكم في الحديث.

وَتَعْـــرَىٰ إِنْ لَبِسْـــتَ بِهَـــا ثِيَابـــاً وَتُكْسَـــىٰ إِنْ مَلاَبِسَـــهَا خَلعْتَـــا

إذا كانت زينة الدنيا هي همك وهي شغلك الشاغل ستعرىٰ، أي من الأخلاق والفضائل ومعاني الخير والفضل والإيمان، (تَعْرَىٰ) تكون عارياً منها، إذا شغلتك زينة الدنيا وزخرف الدنيا وفُتِنت بها وشُغِلت بها ستترك بمقابل ذلك دينك، خُلقك، ما يقربك إلىٰ الله؛ ستكون عارياً من ذلك.

وَتَعْـــرَىٰ إِنْ لَبِسْـــتَ بِهَـــا ثِيَابـــاً وَتُكْسَـــىٰ إِنْ مَلاَبِسَـــهَا خَلعْتَـــا

(تُكْسَىٰ) أي: بحُلل الإيمان والتقوىٰ والأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة (إِنْ مَلاَبِسَهَا خَلعْتَا) أي: لم تكن هي الشاغل لقلبك والمسيطرة علىٰ نفسك وفؤادك.

وَتَشْـــهَدُ كُـــلَّ يَـــوْمٍ دَفْـــنَ خِـــلٍّ كَأَنَّـــكَ لاَ تُـــرَادُ لِمَـــا شَـــهِدْتَا

ثم يقول له ناصحاً ومُذَكِّراً بما أشار إليه قريباً في قوله: وعن قريب ستطعمك، يقول له: (وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ) يعني يمر عليك بمرور الأيام أعداد يفارقون هذه الحياة ويغادرون هذه الدنيا، بعضهم من أسنانك وبعضهم أصغر سِنّاً منك، وبعضاً أكبر سِنّاً منك.

ويذكرون في هذه الأيام، من يومين، شاب- لعله إن شاء الله من الصالحين- دخل المسجد في بلده صلاة العصر، وصلىٰ السُّنة وأخذ يقرأ القرآن، ثم صلىٰ الفرض مع الجماعة، ثم أحس بشيء من التعب ورجع وتسند علىٰ سارية وتوفي وهو شاب، وما كان يحس شيئاً وهو يدخل المسجد!

فيقول له:

وَتَشْـــهَدُ كُـــلَّ يَـــوْمٍ دَفْـــنَ خِـــلٍّ كَأَنَّـــكَ لاَ تُـــرَادُ لِمَـــا شَـــهِدْتَا

يعني هذا الذي تراه من دفن هؤلاء كأنك لا تراد بمثل ذلك، وأنه لن يصيبك أو لن ينالك مثل ذلك.

هذا المعنىٰ الذي ذكره- رحمه الله- في هذا البيت له نظير له في ثلاثة أبيات جميلة يصور فيها هذا الأمر، ويُجلي فيها هذه الحقيقة يقول: تَمُر لذاتي- لذاتي: أي مَنْ سِنهم مثل سني-.

تمر لذاتي

تَمُـرُ لِـذَاتِي وَاحِـداً بَعْـدَ وَاحِـدِ وَأَعْلَـمُ أَنِّـي بَعْـدَهُمْ غَيْـرُ خَالِـدِ

وَأَحْمِـلُ مَوْتَـاهُمْ وَأَشْـهَدُ دَفْـنَهُمْ كَـأَنِّي بَعِيـدٌ عَـنْهُمْ غَيْـرُ شَـاهِدِ

فَمَـا أَنَـا فِـي عِلْمِـي بِهِـمْ وَجَهَـالَتِي كَمُسْـتَيْقِظٍ يَرْمُـو بِمُقْلَـةِ رَاقِـدِ

يعني يقول: هذه الأمور التي أراها وأعيانها وأشاهدها بالوفيات تلو الوفيات، وفقْد الخلان واحداً تلو الآخر، أنظر إليها وكأني لا أُقصَد أو لن يصيبني مثل ذلك.

والنبي عليه الصلاة والسلام صحَّ عنه قوله: «تذكروا هادم اللذات»؛ لأن تَذَكُّر الموت ينفع الإنسان من حيث الاستعداد والتهيؤ ليوم المعاد.

ثم يواصل الحديث عن الدنيا وذم الانقطاع لها والانشغال بها والعكوف عليها والركون لها، يقول:

وَلَـمْ تُخْلَـقْ لِتَعْمُرَهَـا وَلٰكِـنْ لِتَعْبُرَهَـا فَجِـدَّ لِمَـا خُلِقْتَـا

يعني الدنيا ليست دار مقر وإنما هي دار ممر ومعبر، فلم تُخلَق لتعبرها [تصحيح] (لِتَعْمُرَهَا وَلٰكِنْ فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا) اجتهد في الأمر الذي خُلِقت لأجله، أنت خُلِقت لأجل تعبر الدنيا.

وانظر هذا المعنىٰ الذي قرره هنا في الحديث «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، فأنت خُلِقت لتعبرها، «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وَإِنْ هُـدِمَتْ فَزِدْهَـا أَنْـتَ هَـدْمًا وَحَصِّـنْ أَمْـرَ دِينِـكَ مَـا اسْـتَطَعْتَا

(إِنْ هُدِمَتْ): قصده بذلك ما يُحذِّر منه وهو الافتتان بالدنيا والاشتغال بزخرفها، وأنها تسيطر علىٰ قلب الإنسان وتشغل نفسه وفؤاده، فإذا هُدِمت، وهدم ذلك بماذا؟، بالعلم، ونور العلم، وضياء العلم الذي يوقظ قلب الإنسان ويُنبهه إلىٰ الذي ينبغي أن يكون هو

الشغل الشاغل له، وموضع الاهتمام والعناية عنده، فإذا هُدمت (فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا) اجتهد في أن تُحصِّن أمر دينك؛ فلعل هذا مراده بقوله: (إِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا).

لكن في الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر»؛

الشاهد قوله: «أصلح لي دنياي»، فلعل قوله: (إِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا) لعل المراد بذلك يعني أمر الافتتان بالدنيا، والانكباب عليها، وكونها شُغل الإنسان الشاغل والمسيطر عليه، وكونها أكبر همّه ومبلغ علمه، فهذه المعاني إن هُدمت بالعلم النافع فزدها أيضًا أنت هدمًا وحصِّن أمر دينك ما استطعت، يعني ما استطعت السبيل إلىٰ أن تُحصِّن دينك وأن تعتني ببنيان دينك فجُدّ في ذلك واجتهد.

وَلاَ تَحْزَنْ عَلَىٰ مَا فَاتَ مِنْهَا ... إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

أي: لا يستولي علىٰ قلبك الحزن والألم لأشياء فاتت من أمور الدنيا، ومُتَع الدنيا، لا تحزن علىٰ ذلك ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣]، فلا تحزن ولا تأسىٰ علىٰ شيء فات لم يُكتَب لك ولم يُقَدِّره الله لك (إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا) إذا كنت قد وفقك الله وأكرمك بالعناية بما ترتفع به درجاتك وتعلو به منزلتك في أخراك.

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا ... مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا

أي شيء ينفعك من الدنيا ولو كثُر، ولو كان مثل مال قارون إذا حُرمت من الباقي الذي هو ثواب الآخرة.

وثواب الآخرة خير وأبقىٰ، وإن الآخرة لهي الحيوان.

وَلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا فَإِنْكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا

يعني احذر مجالس السفهاء المبنية علىٰ الضحك والهمز واللمز والسخرية والتهكم، احذر من هذه المجالس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين] فمجالس السفهاء المبنية علىٰ الضحك والسخرية والتهكم ونحو ذلك لا تضحك فيها ولا تكن من جُلَّاس تلك المجالس، (فَإِنْكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا) تبكي وتندم يوم الجزاء، يوم الحساب إن ضحكت.

وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَىٰ أَمْ غُلِلْتَا؟

كيف تنعم وتمتلئ سروراً وأنت لا تدري تُفدَىٰ وتنجو يوم القيامة أو تُغلّ- والعياذ بالله- تكون ممَنْ يُكردَس في نار جهنم.

وأحد السلف قرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] أي: النار، قال: نحن علىٰ يقين من الورود، لكننا في شك من العبور والنجاة، فالإنسان لا يدري يُفدَىٰ أو- والعياذ بالله- يُغَلّ.

وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَىٰ أَمْ غُلِلْتَا ؟

يعني لا تدري هل تنجو أو تكون من الهالكين.

وهذا كله فيه تحذير من اشتغال الإنسان بالضحك والانكباب علىٰ سرور الدنيا الزائل ومُتَعها الزائلة والانشغال بذلك، وملء الأوقات بالضحك والسخرية وغير ذلك.. ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة:٨٢]، فهذا الضحك قد يكون سبب بكاء الإنسان لكونه فرَّط وضيَّع وأهمل ما به نجاته عند ربه، وأخذ يستغرق أوقاته في هذه الحياة الدنيا بالضحك والسخرية ونحو ذلك.

وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا

وهذه وصية عظيمة بالدعاء والإقبال علىٰ الله ﷻ أن يوفقك، (سَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ) أي: اسأله أن يوفقك.

والتوفيق: هو أن لا يكلك الله إلا إليه سبحانه، والخذلان: أن يكلك الله إلىٰ نفسك.

الخذلان: أن يكلك الله إلىٰ نفسك، والتوفيق: أن لا يكلك إلا إليه.

في الدعاء المأثور: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين»، فكون الإنسان يوكل إلىٰ نفسه هذا هو الخذلان، والتوفيق أن يكلك الله إليه ﷻ، فيكون هو الحافظ لك وهو الموفق وهو المعين، وهو المسدد، وهو الهادي.

(سَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ) أي: اسأل الله جل وعلا أن يوفقك في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

(وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا) ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥]، (وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا) أي: كن في سؤالك مخلصاً صادقاً مقبلاً متضرعاً مُلِحًّا.

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا ... بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّىٰ

(ذُو النُّونِ) أي صاحب النون، (ابْنُ مَتَّىٰ) يونس بن متّىٰ عليه السلام، ويقال: (ذُو النُّونِ) لأنه التقمه النون، ابتلعه، فيقال له: (ذُو النُّونِ) والنون: الحوت.

فيقول ناصحًا: (وَنَادِ) أي: ربك سبحانه في سجودك (إِذَا سَجَدْتَ) (اعْتِرَافًا) أي: بتقصيرك وذنبك (بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّىٰ) ودعوة ذو النون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه.

وهي دعوة عظيمة جمعت التوحيد، والتنزيه، والاعتراف بالذنب، وسؤال الله المغفرة؛ هذه أربعة أمور جامعة عظيمة اشتملت عليها هذه الدعوة المباركة، دعوة ذي النون عليه السلام.

وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ ... سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

(وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا) أي: أدِم قرْع الباب، أي: أدِم الإلحاح علىٰ الله ﷻ، وألِح علىٰ الله جل وعلا بالدعاء ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف:٥٥] ألِح وداوم الدعاء وأكثِر من الدعاء.

..... عَسَاهُ ... سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

ومَنْ أدمن قرْع الأبواب أوشك أن يُفتَح له، فأنت داوم ولا تقنط، ولا تيأس، ولا تقل: دعوت ولم يُستجَب لي؛ بل داوم قرْع الأبواب وداوم السؤال والإلحاح علىٰ الله ﷻ.

وَأَكْثِـرْ ذِكْـرَهُ فِـي الأَرْضِ دَأْبـًا لِتُـذْكَرَ فِـي السَّـمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَـا

(وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا) أكثر ذِكْر الله، أكثر من ذِكْر الله ﷻ، أي: اذكر ربك بالكثرة، دعاءً كثيراً.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] هذا فيه الحث علىٰ الذِّكر لله سبحانه بكثرة.

(وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا) أي: مستمراً علىٰ ذلك ومداوماً عليه.

(لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا) (لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ) أي: ليَذكُرك الله ﷻ في السماء.

وفي القرآن: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢].

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالىٰ: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وفي الحديث الآخر: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه».

وَلاَ تَقُـلِ الصِّـبَا فِيـهِ امْتِهَـالٌ وَفَكِّـرْ كَـمْ صَـغِيرٍ قَـدْ دَفَنْتَـا

(وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ) لا تقل: ما زلت صغير السن، كثير من الناس إذا عُرِضَت عليه أبواب الخير أو حُثَّ علىٰ التوبة والإنابة إلىٰ الله قال: ما زلت شباب، وبعد الثلاثين، بعد الأربعين أعود، لكن الآن هذه فترة شباب وفترة طيْش وفترة كذا، فهذا المعنىٰ قائم في نفوس عدد؛ وهو التسويف يعني، عندما تُعرَض عليه التوبة ونَفْعُها وآثارها ويحث علىٰ الاستقامة نفسه تَكِعُّ عن ذلك ولا تقبل عليه بتسويف وتأجيل باحتجاج لنفسه واعتذار أنه ما زال شاب، ويريد أن يستغل مرحلة الشباب بأمور يظن أنها شيء وهي ليست بشيء، بل مضرة عالية في دنياه وأخراه.

فيقول: (وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ): لا تقل أنا في مرحلة الصِّبا ولا يزال عندي مهلة، عندي وقت، أنا الآن عمري خمسة عشر، وجدي - مثلاً - الآن حي عمره تسعين، إذا بلغت الثمانين، السبعين.. عندي امتهال، عندي فرصة، أنا ما زلت صغير، أنا عمري الآن خمسة عشر، جدي الآن تسعين سنة، مائة، ينظر إلىٰ مُعمَّر واحد في حيِّه أو في بيته أو في منطقته، ويتوهّم أنه سيكون مثله، ويُعمّر مثل عمره وينسىٰ مَنْ يموت من الشباب، ينسىٰ أن مات عدد كبير من أسنانه ومنهم أقل منه سِنّاً، هؤلاء ينساهم، ويغتر برؤية مُعمّر واحد أو أكثر.

ماذا قال الشاعر في هذا المعنىٰ؟

يُعمّـر شـخصٌ فيَغُـر قومـاً ويُنسىٰ ما يموت من الشباب

يعني بيت حول هذا المعنىٰ..

يقول:

وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ وَفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

فَكِّر كم صغير قد دفنتا!

إذا قالت نفسك: الصبا فيه امتهال قل لها: كم دفنا من الصغار؟.

وكثيراً ما نسمع الصلاة علىٰ الأطفال، أحياناً يقال: الصلاة علىٰ الميت والأطفال، ويكون عدد الأطفال أكثر؛ فإذا قالت النفس: العمر فيه امتهال، وهذا فلان مُعمّر وهذا عمره جاوز المائة، وهذا بلغ كذا، قل: كم -أيضاً- مات من الأطفال.

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَىٰ بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

(وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَىٰ بِنُصْحِكَ) قل: يا ناصحي أنت أَوْلىٰ بهذا النصح (لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا) انظر إلىٰ أفعالك، وانظر إلىٰ أعمالك، وانظر إلىٰ حالك، وأنت تقدم لي هذه النصائح أنت أولىٰ بهذه النصائح.

وهذا حال العالم الصادق الناصح؛ لا يرىٰ نفسه متميزاً علىٰ المنصوح بل يشعر بتقصيره وتفريطه وبحاجته مثل الناصح، حاجته مثل الناصح إلىٰ المحاسبة والمعاتبة والانتفاع بهذه المواعظ، لا يرىٰ أنه متميز، لا يرىٰ تميزه علىٰ الآخرين، ولهذا يقول:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَىٰ بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

والشيخ عبد الرحمن بن سعدي في منظومته الجميلة «منهج الحق» لما حثَّ علىٰ الذِّكر ورغَّب فيه وعدَّد فضائله ومنافعه ماذا قال في خاتمتها؟

قال:

ولكننا من جهلنا قلَّ ذِكرنا كما قلَّ منّا للإله التعبُّد

ما قال: (ولكنكم من جهلكم قلَّ ذِكْركم) وأخرج نفسه؛ بل العالم الناصح يشعر بحاجته مثل الآخرين إلىٰ ذلك، ولا يميز نفسه عن الآخرين، ولا بإشارة ولا بتلميح ولا بغير ذلك، لا يميز نفسه عن الآخرين، بل يرىٰ نفسه مثلما قال الله عن المؤمنين الكُمَّل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠].

يقولون: أحد الوعاظ- انظروا التمييز للنفس!- أحد الوعاظ يحث الناس علىٰ الطاعة والعبادة ويخوفهم من النار، في أثناء كلامه لهم قال: أنا وهو أنا ما أدري أنا في الجنة ولا في النار، مثل هذا الكلام ما يليق ولا يصلح أصلاً، ولا يميز الإنسان نفسه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]

فلما اتجه له بهذه النصائح، وافعل كذا، وأوصيك بكذا، وأحثك علىٰ كذا، قال:

وَقُلْ : يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَىٰ بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

لو نظرت لأفعالك أنت لوجدت أنك فعلاً أولىٰ وأحوج إلىٰ هذا النُّصح.

تُقَطِّعُنِي عَلَىٰ التَّفْرِيطِ لَوْمًا وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا

أنت أيضاً مُفرِّط وأنت عندك أيضاً تقصير، فلا تلومني بل لُم نفسك، ولا تعاتبني بل عاتب نفسك.

تُقَطِّعُنِـــي عَلَـــىٰ التَّفْـــرِيطِ لَوْمـــاً وَبِـــالتَّفْرِيطِ دَهْـــرَكَ قَـــدْ قَطَعْتَـــا

وَفِـــي صِـــغَرِي تُخَـــوِّفُنِي الْمَنَايَـــا وَمَـــا تَـــدْرِي بِحَالِـــكَ حَيْـــثُ شِـــخْتَا

يعني وقد صرت شيخاً كبيراً في صغري تخوفني المنايا لأنه قال له: (وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ) فأنت خوفني بالموت وأنا صغير، تخوفني بالموت وأنا صغير سِنٍّ.

ومثل هذه المعاني أيضاً يُستفاد منها بعض الأشياء حول المنصوح من حيث السن، من حيث أشياء من هذا القبيل، هذه يمكن أن يُستفاد منها.

يقول: (وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا) يعني أنا وصغير السن ولا يقارن سني بسنك تخوفني المنايا.

(وَمَا تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتَا) أنت أكبر مني سناً وأولىٰ أن تُذَكَّر بالمنايا مني.

وَكُنْـــتَ مَـــعَ الصِّـــبَا أَهْـــدَىٰ سَـــبِيلاً فَمَـــا لَـــكَ بَعْـــدَ شَـــيْبِكَ قَـــدْ نَكَثْتَـــا

يعني كنت في صباك أحسن حالاً من هذه الحال، وأفضل شأناً من حيث لزوم الهدىٰ والاستقامة.

وَكُنْـــتَ مَـــعَ الصِّـــبَا أَهْـــدَىٰ سَـــبِيلاً فَمَـــا لَـــكَ بَعْـــدَ شَـــيْبِكَ قَـــدْ نَكَثْتَـــا

نكثت العادة.

كل هذا من إظهار النفس مظهر التقصير والتفريط واللوم والمعاتبة لها (فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا).

وَهَـــا أَنَـــا لَـــمْ أَخُـــضْ بَحْـــرَ الْخَطَايَـــا كَمَـــا قَـــدْ خُضْـــتَهُ حَتَّـــىٰ غَرِقْتَـــا

لم أدخل في الخطايا إلىٰ الغرق فيها والتمادي فيها، وأنت (كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّىٰ غَرِقْتَا) فيه.

(وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ) المراد بها: الحمية: أي الكأس التي لها فورتها عند صاحبها، و(أُمِّ دَفْرٍ) الدنيا، و(أُمِّ دَفْرٍ) هي الدنيا، فيقول: لم أُفْتَن بالدنيا كما فُتنت بها، وكما شُغِفت بها، وكما شُغِلت بها، (وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّىٰ سَكِرْتَا)، يعني فتنتك وشغلتك أكثر مما شغلتني.

(وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ): أنت تميزت عني أنك نشأت في عصر فيه نفع وفيه علم فحصَّلت.

(وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا).. (وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ) يعني نشأت في عصر فيه علم وعلماء ولم تنتفع منهم ولم تستفد.

وَ لَـــمْ أَحْلُـــلْ بِـــوَادٍ فِيـــهِ ظُلْـــمٌ وَأَنْـــتَ حَلَلْـــتَ فِيـــهِ وَانْتَهَكْتَـــا

كل هذا يذكره رحمه الله موضع الهضم للنفس وإظهارها مظهر التقصير والتفريط، وحاجته أكثر من المنصوح إلىٰ العناية بنفسه والمعاتبة لها، ولومها، وزمها بزمام الاستقامة، والخوف من سوء الختام، والعناية بالثبات، والأمور المعينة علىٰ الثبات، كل هذه المعاني تدور حولها هذه الأبيات ولا يزال ماضيًا -رحمه الله تعالىٰ- في النُّصح والتوجيه، وذِكْر الوصايا العظيمة النافعة.

لكن نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.